وساعدها على ذلـك شخـصيتها المرحـة، المنطلقـة، المحبـة للحياة، ساحرة الابتسامة.. حتى كادت هـذه الابتـسامة أن تنطفـئ، فبعـد أن حققـت نجوميتهـا، كانـت هنـاك عـين ترصدها بخلاف عيون جماهيرها المحبة)

11

سعاد حسني والسؤال المحير

رغم أن غالبية الناس قد ترى عكس هذا الرأي، إلا أننا نعتقد أن سعاد حسني لم تكن محظوظة في حياتها.. نعم سعاد عاشت حياتها سلسلة من العذابات بدءًا من طفولتها التعسة الممزقة وسط (17) أخًا وأختًا، وفي صراعات لا تنتهي بين أب وأم، لا بل إن هذه الصراعات قد انتهت ولكن في طريق غير الذي يتمناه كل ابن وابنة، وتنتقل سعاد لتعيش مع زوج أمها الجديد الذي كان أكثر حنانًا معها.. ولكنها لم تكن لتنسى أو تنفصل تمامًا عن مشاهد العنف والمذلَّة التي كانت تسيطر على جو أسرتها الأولى..

وسط هذا الجو نشأت سعاد حسني، وتشكلت الأطر العامة لشخصيتها، وهو ما لم تنجح نشوة الشهرة ولا حياة الأضواء أن تمحو من عقلها بؤس الطفولة وسنوات المراهقة الأولى التي امتلأت بالرفض والرغبة في الخلاص.

وإذا كان ضروريًّا أن نصدق حكاية المشهد الأخير في حياتها ونسلِّم بأنها قد انتحرت، فلا بد أن نبحث عن جذور انتحارها، بدءًا من سنوات الطفولة ومشاهد العنف بين الأبوين.

و.. كبرت سعاد..

ونجحت..

ولمعت..

وكسبت المال وحب الناس..

ولكنها أيضًا كانت تتعذب..

فمع انطلاق الفراشة الملونة تحوم حول الأضواء، بل إن الأضواء ذاتها كانت هي التي تسعى إليها.. أو تنحاز إليها.. ولذلك كان بديهيًّا أن تلفت نظر صائدي الفراشات الملونة الذين كان جلّ همّهم في تلك الفترة هو اقتناص الفراشات ووضع أجنحتها تحت المقصلة.

وبوضوح أكثر..

وسواء صَحَّت تلك الرواية التي تقول إن جهاز المخابرات بقيادة صلاح نصر قد استطاع أن يصل إليها وأن يضعها (مجبرة) في خانة (المندوبات)، أم لا، إلا أنه في الغالب فإن سعاد قد تعرضت لكثير من الضغوط وكثير من المضايقات – كغيرها – ومرة أخرى وجدت سعاد حسني نفسها تبحث عن.. الخلاص.

وإذا كانت قد نجحت في التخلص من هذه المحنة، فإنها وجدت نفسها تقع في غرام العندليب – عبد الحليم حافظ – ولسبب أو لآخر لم تستطع الزواج منه، أو إذا كان قد وقع هذا الزواج – على حد ترويج عدد من المقربين من النجمين – فإنه من المؤكد أنه لم يستمر ولم يثمر عن لحظات سعيدة لكليهما، وبالطبع فإن هذا قد سبب عذابًا آخر للسندريللا.

نعم.. لقد تزوجت بعد ذلك عدة مرات، ولكن الصدفة الأولى تبقى هي الأشد والأبقى تأثيرًا.

أما النصف الثاني من حياة السندريللا، فقد أصبح هو النصف الأسوأ من عمرها، عندما ذاقت طعم الفشل في كل شيء .. في الحب، وفي الزواج، وفي النجومية أيضًا، مع فشل صادف أحد أفلامها "الدرجة الثالثة" – هكذا اسم الفيلم – وعندما زارها المرض ولم يخرج من جسدها ولا من عظامها.. وعندما انحسرت الأضواء.. وتضخم الجسد – الذي كان رشيقًا رشاقة الغزلان.. ثم عندما ذاقت الغربة وجربت الوحدة، وتجرعت الاكتئاب..

ومرة أخرى راحت تبحث عن الخلاص.

لذلك لم تعِشْ سعاد حسني سوى لحظات قليلة من عمرها..

ورغم ذلك فإننا نشعر بعظيم الامتنان، وندرك تمامًا جمال وروعة هذه اللحظات التي عاشتها كفنانة مبدعة.

ونهتف جميعًا: ما أروعك يا سعاد.. يا سندريللا.. يا زوزو.

ولكنها أبدًا لم تكن محظوظة.

* * *

وعندي وجهة نظر – وإن كنتُ لا أملك دليلاً علميًّا عليها، بل كل ما أملكه في هذا السياق هو بضع تجارب ومشاهدات متأملة – وملخص وجهة النظر هذه أن الإنسان – وليس كل إنسان – في بعض الحالات يستشعر – بشكل أو بآخر – مستقبله، وليس أدلّ على ذلك من أن بعضنا أحيانًا يشعر بوجع غير مفهوم، أو بحزن غير مبرر، ثم يعلن لبعض المقربين منه أن "شيئًا ما" سيحدث.. ثم يحدث.. بالفعل!

وفي السياق نكتشف أن نهايات "الحزانى" هي في الغالب نهايات حزينة أيضًا، فهل الحزن هو "السبب" في تلك النهايات، أم أن شيئًا ما أخبر هذا الشخص بمستقبله فساهم في رسم ملامح الصورة الحزينة على وجهه.. بل وروحه؟!

المتأمل المدقق لعلامات "الساعات الأخيرة" في حياة المشاهير ممن نعلم حياتهم بكثير من تفاصيلها، يكتشف أن معظم أدركوا نهاياتهم قبل وقوعها، بل وبعضهم تحسّب لذلك!

ولأنها مجرد نظرية فلسفية تحتاج إلى مناقشات وإلى ملاحظات أدق وأعمق، فإننا سنحاول فقط ملاحظتها على حالة النجمة الساطعة دومًا.. سعاد حسني..

فهل كان هناك ربط ما بين اكتئاب سعاد حسني المفاجئ وهي في فترة لا تقل خصوبة ولا مقدرة على العطاء، وبين كونها تعيش الشهور الأخيرة في حياة أعظم شخصية احتوتها، وصادقتها، وعلّمتها، وشملتها بالرعاية والدفء والشعور بالحب والأمان.. وهي شخصية العملاق المتعدد المواهب صلاح جاهين؟

هل خافت سعاد أن تفقد صلاح جاهين ففقدته بالفعل؟

أم أن "رادارًا" خفيًّا أطلعها بقرب النبأ المشئوم، فتحصنت له بجرعة واقية من الحزن والاكتئاب؟!

هل بداخلنا حقًّا هذا "الجهاز" الكاشف للمستقبل؟

أو بالأحرى.. هل هو متوافر داخل "بعضنا"؟

وإذا استكملنا هذا التفسير، فلعله ينطبق أولاً على "صلاح جاهين نفسه، الذي دخل في قوقعة الاكتئاب بكامل إرادته، ورغم ما يتردد عن وجود أسباب قوية أدّت به إلى هذه النتيجة المحزنة، إلا أنه قد يكون خوف صلاح جاهين من هذه النهاية هو الذي قاده إليها سريعًا!

وقياسًا: هل كانت تشعر السندريللا بدنوّ نهايتها المفجعة على هذا النحو الذي صدم الملايين من عشاقها؟

هل كانت تعرف مبكرًا أنها ستلقي بنفسها – أو سيُلقي بها – ليهوي النجم الساطع، ويبقى فقط ضوءه المشعّ، تمامًا كما يخدعنا ضوء آلاف – أو ملايين – النجوم الساطعة في كل ليلة، ثم يصدمنا علماء الفلك بأنها رحلت..

هل كانت تعرف السندريللا مبكرًا أنها – كنجوم أخرى – سوف تحترق على هذا النحو المفجع، ولن يبقى إلى ضوءها نراه ولا نستطيع أن نلمسه؟!

هل اكتأبت لأنها كانت تشعر بالخطر..؟ أم لأنها كانت على يقين من النهاية؟

ورغم أننا لسنا من المذعورين القائلين بأن وراء كل ما لا نستطيع تفسيره – فورًا – مؤامرة ما، ونؤمن بأن نظرية المؤامرة غالبًا ما تكشف عن فكرة مهزوزة إذا لم تكن تستند إلى الدليل القوي، رغم ذلك فإننا نؤمن أيضًا بأن كل شيء يجب أن يناقَش.. يحلَّل.. يوضَع تحت المجهر.. أو تحت شمس المعرفة.

كانت النهاية المفجعة للسندريللا سعاد حسني أكبر من احتمال عشاقها..

وكما يحدث لكل الشخصيات الاستثنائية في التاريخ، راح البعض ينسج حولها الحكايات والأساطير..

قالوا إنها سقطت بعد أن فقدت توازنها، ثم وجدوها حكاية عادية لا تليق بشخصية غير عادية فعدّلوا في الخبر: بل انتحرت سعاد.. أيضًا لم تكن هذه النهاية تُرضي البعض فقالوا: بل قام الموساد – جهاز المخابرات الإسرائيلي – بتصفيتها!

أما الأطراف والأغرب والأكثر إثارة فهو ما قاله شاعر عامية مرموق: لقد قتلها مسئول مصري!!

تعالوا نقرأ الحكاية..

ولكي نتعرف أكثر على ما حدث لسعاد حسني تعالوا نقرأ هذه المشاهد من حياتها من البداية حتى اللحظات الأخيرة..

فعن الجو الذي نشأت فيه السندريللا يأتي هذا المشهد الذي يصِفه محمود عوض: قال: (في سنوات سعاد كان الزمن بخيلاً وسخيًّا، حليفًا وعدوًّا، دافعًا لها وسيفًا عليها. هي من أسرة رقيقة الحال ضمّت (17) أخًا وأختًا.. الأب خطاط موهوب لكنه مزواج، البنت الصغيرة اللهلوبة تعيش في خلافات دائمة بين أبوين مطلقين.. في السياق أصبحت شقيقة كبرى لها من الأب – هي نجاة – مطربة في الإذاعة.. وشاركت سعاد في صغرها في برامج "بابا شارو" للأطفال.

أما التحول الكبير في حياتها فقد جاء من مكتشفها عبد الرحمن الخميسي، وهو رجل متعدد المواهب: فنان وكاتب وموسيقي وشاعر ومترجم، وصاحب عين مدربة على التقاط المواهب، وبنفس هذه العين رأى الخميسي في سعاد "نعيمة" الشخصية الفولكلورية المعروفة باسم "حسن ونعيمة"، التي أعاد الخميسي صياغتها لتصلح للسينما بعد أن قدمتها كريمة مختار للإذاعة عن نص عبد الرحمن الخميسي أيضًا.

قفزة أخرى:

وفي مكتب عبد الوهاب الذي قرر التصدي لإنتاج أول أفلام سعاد حسني "حسن ونعيمة" ومن إخراج بركات – مخرج أفلام فاتن حمامة – وقفت السندريللا الجديدة بكل جرأة تقول لعبد الوهاب: والنبي يا أستاذ.. أنا نفسي أغني كمان في الدور ده!

وبكل تقل عبد الوهاب سألها: إنتي ليكي في الغناء؟

قالت: أمّال إيه يا أستاذ... وانطلقت تغني "كل ده كان ليه".

ولكن بحرص عبد الوهاب المعروف: قال: نأجل موضوع الغناء شوية.. خبطتين في الرأس توجع.

القفزة الكبرى في حياة السندريللا كان عنوانها "زوزو"، وزوزو اسم أشهر شخصية صنعها صلاح جاهين وحققت القفزة الكبرى في تاريخ وحياة السندريللا، لدرجة أنها كانت تسجِّل على تليفونها المحمول جملة تقول فيها "أنا زوزو النوزو كوانوزو"، فقد كانت تعتز بنجاحها الساحق في هذا الدور. ونحن الآن في جلسة على النيل جمعت بين سعاد حسني وصلاح جاهين ليتكلم معها عن فكرة هذا الفيلم الذي يأتى في أعقاب الجراحة الشاملة للحياة المصرية عقب نكسة 1967، فكان هذا الفيلم الذي ابتعد عن السياسة ووجع القلب، واختار سرد قصة حب بين فتاة بسيطة وشقية: ترقص وتغني وتمثل و.. تحب!

ووصف صلاح جاهين وبحقّ أنه المكتشف الثاني لسعاد حسني أو "السندريللا"، وعندما رأى كمال الطويل سعاد حسني تحمّس لها ووضع لها لحن "يا واد يا تقيل" اللحن الأساسي للفيلم الذي يعبّر عن مضمونه، والذي أصبح قنبلة الموسم!

وظل دور "زوزو" هو اللمسة السحرية في علاقة سعاد حسني مع جمهورها، وظلت سعاد تستعيد كثيرًا من ذكرياتها مع "زوزو" حتى بعد أن قدمت العديد من الأفلام بعضها نجح جدًّا وبعضها "عادي"، وحتى فيلمها الذي يعدّ تنويعات على تركيبة "زوزو"، وأقصد به "أميرة حبي أنا"، الذي وضع ألحانه كمال الطويل (كاملة)، ورغم نجاح "الدنيا ربيع والجو بديع"، إلا أن زوزو كان له مذاق آخر في داخلها.. وعرفت السندريللا أو "زوزو" حرفية الاختفاء عن عيون الناس.. إنها لا تقوى على مواجهتهم وهم ينادونها بـ"زوزو".. لا تعرف إن كانت لا تزال زوزو أم لا، حدث لها هذا عندما تزامن ابتعادها عن زوزو فترة من الزمن، ومع زيارة ضيف ثقيل هو: المرض.

وهنا يقول محمود عوض: "مع الزمن استجدّ خصم آخر: المرض، فمع إصابة سعاد حسني بشرخ في العمود الفقرى وعلاج خاطئ في البداية، أصبحت آلامها لا تطاق، بعدها أصبحت نفس الأدوية التي تسكن آلامها هي التي تسبب لها زيادة الوزن، وهو ما يؤدي بدوره إلى ابتعادة عن حالة اللياقة البدنية التي تريدها لنفسها، وكلما نظرت سعاد حسني في مرآتها تبحث عن "زوزو"، تجدها أبعد.. وأبعد.. الحلم يهرب وفي فراغه يجيء شيء آخر: الاكتئاب.

ومن بين 82 فيلمًا سينمائيًّا بدأ التردد في العلاقة ما بين سعاد حسني والكاميرا والجمهور اعتبارًا من فيلم "المتوحشة" الذي أنتجته سعاد لنفسها "1977" واضطرت إلى تصوير نهايته

مرتين مختلفتين، أما فيلمها الأخير فهو "الراعي والنساء" الذي كان أكبر همّ سعاد خلال تصويره هو إخفاء متاعبها الصحية التي كانت قد استشرت مع زيادة الآلام.

وبعدها بدأت سعاد رحلات العلاج ما بين باريس ولندن، ومع زيادة وزنها أصبحت تصوم عن الصور التي أصبحت من بين ممنوعاتها. وحالة كهذه لم تكن تغري أي جهاز مخابرات – الموساد أو غيره – على الاقتراب من صاحبتها!

لقد وصل الأمر في غربة سعاد حسني وانطوائها وانزوائها بعد عشر سنوات من الغياب المتقطع والسفر وإعادة السفر والمرض والصحة، أن تموت بالسقوط من شرفة بالطابق السادس من بناية ضخمة بها عدد من المصريين لم يدر أحد منهم بوجود سعاد بينهم.. سعاد التي كانت لا تفارقها الفلاشات ولا نظرات المتطفلين.. أصبحت وحيدة.. بإرادتها.. منكسرة – بغير إرادتها – تضع النظارة السوداء على عينيها لتتخفى عن أعين المحبين قبل المتطفلين.

وننتقل بسرعة إلى مشهد آخر اختلطت فيه الكوميديا بالمأساة، وبالرغم من سرعة انتقالنا إلى هذا المشهد، إلا أن ما بين المشهدين – السابق والحالي – مَرّ على محبي سعاد كالدهر من فرط الحزن الهستيري الذي أصاب كثيرًا من عشاقها، المشهد تدور أحداثه في صالة الوصول بمطار القاهرة الدولي حيث عدد من الفنانين والجمهور في انتظار جثمان سعاد.. الآن وصل الجثمان بمصاحبة صديقتها التي عاشت السندريللا في شقتها ساعاتها الأخيرة.. المفاجأة في المشهد هو تحول الأنظار من ذلك الصندوق الكئيب الذي يضم بين جنباته المُظلمة جثة سعاد وهي لا تزال ساخنة – إن صحّ التعبير – إلى خناقة.. نعم خناقة بين عدد من رجال الفن وحريمه وبين صديقة سعاد – واسمها نادية يسري – وتتناثر الاتهامات ما بين القتل والتدبير للقتل، أو على الأقل إخفاء المعلومات.. ويتم بالفعل توجيه اتهام رسمي لأجهزة التحقيق بهذا المعنى!

ووصل الأمر إلى حد توجيه أصابع الاتهام تجاه جهاز المخابرات الإسرائيلية "الموساد"، وهنا يعلّق الكاتب محمود عوض قائلاً: "الغريب أن الذين أفتوا بذلك هم الذين يستسهلون إعطاء الموساد ما لا تستحقه.. وهو كثير.. بينما هم في الوقت نفسه يغضّون الطرف عما تقوم به "الموساد" فعلاً.. وهو خطير..

ويمكن إضافة بعض "الأصوات" إلى الصورة في هذا المشهد، فالبعض قال إن جيران سعاد – من العرب والخواجات – قد سمعوا أصواتًا من الخبط والرزع، وأن هذه الأصوات العالية استمرت لنحو خمس عشرة دقيقة، وبعدها جرى سقوط أو إسقاط سعاد من الطابق السادس، وأضاف هؤلاء – وهم من أنصار نظرية التآمر على سعاد لحساب الموساد الإسرائيلي – إن لدى الشرطة البريطانية بلاغًا من هؤلاء السكان الجيران هو في حد ذاته أحد أدلة الاحتمالات الجنائية في موت سعاد حسني. ولم يذكر أحد اسمًا واحدًا لأولئك الجيران الشاكين، وبالتالي فالباب لا يزال مفتوحًا لكي تصبح الشرطة – بدورها – متواطئة في قتل سعاد حسني.

والكاتب محمود عوض يرى أنه كان الأجدر بأقرباء السندريللا أن يتوجهوا بالشكر إلى تلك السيدة المصرية القادمة مع جثمان سعاد حسني، بدلاً من توجيه الاتهام لها بإخفاء مجوهرات سعاد ومذكراتها المكتوبة.. وإن كان – بصفته من المقربين – يؤكد أن سعاد لم تكن في أي وقت من هواة المجوهرات.. ولا كانت أيضًا ضليعة مع الورق والقلم والكتابة والتأملات الفلسفية.. كما أن عشقها للحياة وثقتها بقدرتها على الاستمرار في العطاء الفني يتناقض أصلاً مع فكرة تسجيل مذكرات، والحكاية – كما يفسرها محمود عوض – أن صديقة سعاد جاءت مع جثمانها في الطائرة بكل متعلقاتها وحقائبها، ولأنها رفضت تسليم تلك الحقائب إلى بعض هؤلاء الأقارب دون بعضهم الآخر.. وقررت منذ البداية تسليم الحقائب إلى سلطات مطار القاهرة للتصرف فيها قانونيًّا، فقد أصبح التشهير بها هو الانتقام الفوري.

وهكذا تحولت الملهاة إلى مأساة سوداء، والملهاة جوهرها ركوب الموجة أو بلغة السينما سرقة الكاميرا.. سرقتها من الجمهور العريض الملتاع ومن سعاد حسني نفسها جوهر المأساة، وهي التي عاشت طوال عمرها تسرق الكاميرا، أو على الأدق كانت الكاميرا تسرق سعاد من نفسها، فقد كانت الكاميرا تنحاز إلى سعاد على طول الخط..

وهكذا استطاع محمود عوض أن ينسف فكرة دور المخابرات في موت سعاد حسني، بل إنه استطاع – بمهارته في الرصد والتحليل ومن واقع قربه الشديد من السندريللا – أن يسخر من الفكرة ويجعلها مجرد فكرة بلهاء هدفها سرقة الكاميرا في مشهد "جنازة" حضره آلاف من محبي سعاد بالإضافة إلى عدسات الصحف وشبكات التليفزيون. وإن كان هناك

صوت من أقارب السندريللا قال مؤخرًا بأن هناك جريمة قتل وقعت بهدف السرقة، وبالتالي خفَت صوت الاتهام بالعمل المخابراتي.

خارج الكادر..

مع خروج عشرات الآلاف من الشبان في وداع سعاد حسني بالقاهرة.. كان شلال الحب يحيط بها من جديد.. وكانت الرسالة واضحة بغير فذلكة ولا فلسفة. الرسالة هي: إن الفن ممتع.. ومبهج للجميع، والمشتغلين بالفن في قلب عشاقه.

لقد كانت الدموع في عيون الجمهور صامتة. وناطقة.. دموع عرفان وسعادة أعطتها لهم سعاد حسني وكلّ مَن صنعوا مشوارها، وهي كذلك دموع حسرة على أن سعاد حسني كانت تستطيع إعطاء المزيد.

وحتى كتابة هذه السطور لم تحسم إسكتلنديارد الموقف في البلاغ المقدم من أسرة سعاد حسني، ولم تقل حتى هذه اللحظة كلمتها الأخيرة، إلا أننا نميل إلى الرأي الذي يقول به الكاتب محمود عوض من عدم وجود دليل – قوى ولا ضعيف – لتورط جهاز مخابرات معادٍ في مصرع سعاد، وإن كانت مثل هذه العمليات المشبوهة ليست بعيدة عليه، ولكن مبدأ "المصلحة" هنا غير موجود من أصله.

ولكننا – في السياق نفسه – نجد أنفسنا غير مضطرين على الإطلاق لمناقشة وجهة نظر أطلقها الشاعر أحمد فؤاد نجم في أحد برامج الفضائيات اللبنانية على الهواء مباشرة في حلقة استثنائية من البرنامج، كنت شخصيًّا أتابعها وأنا ما بين الضحك الهستيري وبين عدم التصديق، بعد أن تحولت "الخيالات" إلى شيء يذاع ويناقش عبر الأثير وأمام عشرات الملايين من المشاهدين الطيبين، فقد كان ما يقوله العم "نجم" شيء أشبه بجلسات المصاطب التي غاب عنها المنطق!

وبقدر ما كانت تمتعنا سعاد حسني بفنها الراقي أمام الكاميرات، بقدر ما كانت تتألم خلف الكواليس..

كثيرون يعلمون نوبات الاكتئاب التي كانت تسيطر على نجمتنا الراحلة، فتقف حائلاً بينها وبين الاستمتاع بحياتها على النحو الذي تريده.

ليس هذا فقط.. بل كان ذلك يقضي على كل رغبة بداخلها للعمل، أو لرؤية الأصدقاء، أو ممارسة متعة الحياة، وهذا هو سر الظهور المفاجئ لسعاد حسني بنفس قوة الاختفاء المفاجئ.

ورغم أن قليلين هم الذين يستطيعون أن يتوصلوا إلى سر اكتئاب سعاد حسني، إلا أن الكثيرين تفهموا وتعاطفوا مع الظروف النفسية الصعبة التي مرت بها عقب حالة عدم التوفيق في أحد أعمالها الفنية، ثم ازداد الأمر سوءًا بعد التغييرات الشكلية التي بدأت تقلقها وهي أشد ما كان يشغلها.. أعني صورتها في عيون عشاقها.. فهل كانت تكتم أسرارًا بداخلها تعذبها وتتعذب معها؟

أم أن (المستقبل) كان هو هاجسها الأول والأخير؟

وفي محاولة لفهم أعماق سعاد حسني النفسية دار بيني وبين الدكتور عادل صادق – عالم النفس المعروف – هذا الحوار، حول سطوع شمس نجوميتها وأفول نجمها، الحياة والرحيل.. الغربة والعزلة..

* قلت: هل كانت سعاد تتمتع بكاريزما القبول التي يتمتع بها بعض كبار المشاهير؟.. وما هي درجة خصوصية هذه الكاريزما في حالة سعاد؟

- سعاد حسني – على وجه الخصوص – كان لها كاريزما خاصة؛ أي قبول جماهيري واسع وقدرة على التأثير.. وهذا هو معنى الكاريزما.. القبول والتأثير.

والقبول قد يصل إلى درجة الحب، فيصبح المشهور زعيمًا أو فنانًا موضع حب لدى الجماهير، وحظي بذلك فقط جمال عبد الناصر، كما حظيت بها أم كلثوم وعبد الحليم حافظ وسعاد حسني.. فقط لا غير!

* تساءلت: ما سر هذه الكاريزما التي تجعلنا نحتفظ بصور سعاد حسني – ومَن ذكَرْتَ – فوق أسطح مكاتبنا، ونزين بها جدران بيوتنا، ومِن قبل كل ذلك ومن بعده نطبع صورها في قلوبنا، فنبدو كالمراهقين المتعلقين بنجومهم.. فما سر سعاد حسني تحديدًا؟

- يقول الدكتور عادل صادق وهو يتعمق في السؤال ليمنحنا أدق إجابة ممكنة: سر كاريزما سعاد هو شحنة التفاؤل التي كانت تدفع بها إلى نفوس الناس، فهي مرحة إلى أقصى

حد، وبسيطة أي قريبة من الجماهير العريضة، ولذا اكتسبت شعبية ضخمة، وكانت ترضي كل احتياجات الجمهور من الفن: رقصًا وغناءً وتمثيلاً. وكان أكثر ما يميز أداءها "الطبيعية".

* قلت: هل هناك عوامل أخرى متعلقة بشخصيتها، ساهمت في تشكيل نجومية سعاد حسني؟

- سر نجوميتها أنها فذّة.. موهبة بلا حدود. تكاد تكون أكثر فنانة في عصرها وما قبل عصرها وما بعد عصرها.

ثانيًا: هي تتمتع بوجه ليس جميلاً فحسب ولكنه ودود.

ثالثًا: ابتسامتها تجعلك تنشرح.. انشراح الصدر.

رابعًا: إنها فنانة شاملة.

* سألت: إنه أصبح من المألوف أن نقول عن فنان ما أو فنانة ما إنه نجم الشباب، وذاك نجم جيل الآباء – مثل محمد عبد الوهاب – إلا أننا في حالة نجمتنا سعاد حسني نلاحظ إجماعًا من الشباب والكبار عليها، لدرجة أن حلقات تليفزيونية تعد العمل التليفزيوني الوحيد لها – وهو بعنوان: "هي وهو" – قد أضاف لها جمهورًا من الأطفال الصغار، إلى جانب عملها السينمائي المهم "صغيرة على الحب" الذي أدّت فيه شخصية طفلة وقدمت فيه استعراضات باهرة.. كيف اجتمع عليها مزاج الصغار والكبار؟

- يقول الدكتور عادل صادق: أجمع عليها الشباب والكبار لأن الشباب توحّدوا معها، والكبار عاشوا من خلالها شبابهم.. كانت رمزًا للشباب والحياة والحب والمرح والتفاؤل والشقاوة.. كانت رمزًا للجمال.. رمزًا للحياة.. رمزًا للبساطة.

هكذا كانت عبقرية سعاد حسني.

* هل ترى معنا جاذبية خاصة في ابتسامة سعاد حسني، لدرجة أنه من النادر أن نلمح صورة لها في أرشيفها وهي لا تبتسم؟

- ارتبطت سعاد حسني بالبهجة لأن هذه هي طبيعة شخصيتها، وهي شخصية "انبساطية".. هذا هو اسم شخصيتها في الطب النفسي، وهي شخصية تتسم بالمرح الشديد،

وسرعة البديهة، والحضور والتأثير على الجماعة ودفعهم إلى الابتسام، بل والضحك من القلب، وتجمع الناس حولها، وهي لا تعيش إلا مع الناس وبالناس.. لا ترى إلا الجانب الجميل في الحياة، وتقنع الناس بالجمال والحب، واكتشف فيها المخرجون هذه الموهبة فاستثمروها في هذه النوعية من الأدوار.

وهكذا فعل كمال الطويل؛ فألحانه لها شديدة المرح والتفاؤل، وفي رأي كمال الطويل أن سعاد حسني هي أعظم مَن غنّت له.

* رغم أن شخصيتها مرحة وانبساطية كما يسميها علم النفس، ومع ذلك ينجح الاكتئاب اللعين في اختراق عقلها ووجدانها إلى هذا الحد؟

- نعم، وللأسف الشديد، فإن أصحاب هذه الشخصية معرضون للاكتئاب، فالأشخاص شديدو المرح قد يصابون بالاكتئاب.. وهذا هو ما حدث مع سعاد حسني.

* كان صلاح جاهين هو الصديق الصدوق لها، وكان أستاذها والقارئ نيابة عنها، والمؤنس لوحدتها، والنافذة إلى أفكارها.. كيف ترى اجتماع هذا الثنائي المبدع على موجة واحدة؟

- سعاد حسني أكملت في صلاح جاهين الجانب الذي يفتقده في نفسه، صلاح جاهين كان شخصية اكتئابية، أما سعاد حسني فشخصية انبساطية، والشخصية الاكتئابية تحتاج إلى شخصية انبساطية لترى بها الجانب المتفائل من الحياة، ولهذا فإن صلاح جاهين ارتبط بها ارتباطًا شديدًا، وهو ارتباط "الحاجة" الذي تحول إلى صداقة وحب.

واكتشفت سعاد حسني في صلاح جاهين الجانب الاكتئابى الذي كان قابعًا في داخلها، واكتشف صلاح جاهين أن بداخلها اكتئابًا مثلما في داخله اكتئاب..

ولذا كان صلاح جاهين أنيسها وجليسها لأن الوحيد الذي كان يفهمها.. الوحيد الذي رأى الاكتئاب بداخلها..

كل الناس لا تعرف عن سعاد حسني إلا الجانب المبهج، أما صلاح جاهين فعرف كلا الوجهين، ولذا استراحت له سعاد حسني، فنحن نستريح للأشخاص الذين يفهموننا، ولقد

أصيبت سعاد حسني بعد ذلك بنفس المرض الذي أصيب به صلاح جاهين وأودى بحياته مثلما أودى بحياتها..(؟).

* هل تركيبة سعاد حسني، بسنوات الانكسار بعد عقود من النجاح، يمكن أن تؤدي بها إلى الانتحار؟

- سعاد حسني كانت مصابة بمرض الاكتئاب، وهو مرض دوري يأتي في صورة نوبات قد تفصلها سنوات، ويشعر المريض في نوبة الاكتئاب بالحزن وفقدان الرغبة وفقدان الحماس في كل شيء .. ينعزل.. ينطوي.. يصاب بالعجز.. يشعر بالذنب.. يؤنب نفسه.. يضعف، فينكسر، ويفكر مرض الاكتئاب في الانتحار حينما تصبح الحياة معذبة، حين تنسد كل الطرق.. حينما يصبح كل شيء شديد السواد، حين لا يجد مهربًا ولا مفرًّا، ويكون الانتحار هو الوسيلة الوحيدة للخلاص (هل هذا هو ما حدث مع سعاد؟!).

* هل اكتئاب (الفنان) يكون أشد فتكًا؟

- الفنان الحقيقي أكثر الناس عرضة للاكتئاب، ونظرًا لطبيعة عمله فإن اكتئابه يكون أشد، وخاصة إذا أَفَلتْ شمسُه وانحسرت عنه الأضواء (مرة أخرى هل هذا هو ما حدث مع سعاد؟!).

وأطلقتُ سؤالي الأخير في اتجاه دكتور عادل صادق فقال:

نعم.. هذا هو ما حدث مع سعاد حسني، وخاصة بعد أن زاد وزنها وخافت على صورتها في عيون الناس.

* ما حجم الخسارة برحيل سعاد حسني التي تمثل تجربة غاية في الثراء على المستويين الفني والإنساني؟

- أكثر ما خسره التاريخ هو عدم كتابتها لمذكراتها نظرًا لثراء حياتها واتساعها، وعمق علاقاتها وخبراتها على كل المستويات.

ويبدو من اتجاه الريح في هذا الحوار أنه يسير في طريق يفترض منذ ناصيته انتحار سعاد حسني بسبب اكتئابها وانعزالها وانكسارها، وهو افتراض لا يأتي على هوى من يقولون

بمصرعها بفعل فاعل؛ لأن النهاية الثانية التي تربط النهاية بأعمال المخابرات والقوى الخارقة تتفق أكثر مع جو الأساطير، الذي يحب الناس – ومنهم كثير من الفنانين أنفسهم – أن يربطوا بينه وبين الأسماء الاستثنائية في التاريخ.